ISSN: 2321-7928

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة النساء)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي[2]

﴿28﴾

تفسير سورة النساء

18. تفسير الآيات (36-43)

وما يأتي الآن هي آيات الختام، فسلسلة الأحكام والنصائح الاجتماعية التي كانت من البداية، قد انتهت على هذه الآيات. فكما ابتدأ هذا الباب بالأمر بدوام تقوى الله ومخافته كذلك انتهى على دوام عبادته. إنّ حقّ الله أكبر من كلّ حق وأعظم منه فمن يُدِمْ أداء حقّه كما يرام فسيوفّق لأداء حقوق غيره فبعد تذكير هذا الحق ذكّر موجزًا حقوقَ كلٍّ من الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين والجيران وأبناء السبيل والإماء والعبيد فحقّ الله عبادته والذي يبطل هذا الحق هو الشرك فلمّا ذكّر هذا الحقَّ نفى الشرك، وأمّا أكبر حقّ للعباد فهو الإحسان إليهم والإنفاق لهم. والبخل والتكبّر والرياء تهدم مبناها فلمّا أكّد على الإحسان والإنفاق، نفى هذه الأشياء. ثم قال للتشجيع على الإنفاق إنّ هذه التجارة ليست تجارة يتبعها الخسران فمن ينفق درهمًا يجد عشرة دراهم ثم نبّه على أنّ حقّ الإنذار والتبليغ تمّ أداؤه بواسطة هذا الرسول فمن لم يسمع بعد ذلك ليعلم أنه سيأتي يوم يقيم فيه الله جميع الرسل شهداء على أممهم ثم يسألهم: إلامَ دعوتم أممكم وبمَ أجابوكم. ثم

---

[1] كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

[2] مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

يطرح نفس السؤال على هذا الرسول الخاتم بشأن أمته الأخيرة. سيكون هذا اليوم يومًا لا وزر فيه للناس ولا يقدر أحد فيه على أن يخفي أمرًا ما.

وفي النهاية ذكر بعض آداب وشروط الصلاة التي هي أكبر مظاهر عبادة الله التي سبق ذكرها، والهدف من ذكر هذه الآداب والشروط تطهير الصلاة عن الأمور المفسدة كما طهّر الإنفاق من قبل عما يمنع عنه ويفسده. في ضوء هذا المدخل اتلوا الآيات التالية:

وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

19- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

الباء في "بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا" تدلّ على أنّ لفظ الإحسان هنا يضمّن لفظ البرّ أي أنّ هذا الإحسان يتبعه أداء الحقوق فلا يكون لمجرد الاسم فإنّ ورود الباء لا تلائم إلا لفظ البرّ فقد جاء في سورة الروم: "وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾"، ويصعب للمترجم الأردوي أنْ يؤدّي حق الترجمة لمثل هذه الأساليب العربية.

و"ٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ" مَنْ هو جارٌ كما أنه قريبٌ وأمّا "ٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ" فيفقد القربى أي أنه جارٌ ولكنه ليس بقريب. وفي "ٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ" الجنب هو الجَنْب أي مَنْ رافقك لوقت محدّد في أيّ حلقة أو سفر أو دكّان أو فندق.

ففي المجتمع الإسلامي يتمتّع كلّ من هؤلاء الرجال بحقّ الجوار على الآخر.

في هذه الآيات أوّلًا أمر بأداء حقّه لأنّ حقه أعظم من غيره من الحقوق لأنه هو الخالق والمالك والربّ وعلى أداء هذا الحق يقتصر أداء الحقوق الأخرى فمن لا يؤدّ حقّ إله لا يوفّق لأداء حقوق الآخرين أداء صحيحًا، وأما حق الله فهو عبادته، وقد بيّنا في غير هذا الموضع أنّ العبادة تشمل السجود له وطاعته ويشترطها عدم شرك أحد بها لأنه لا شريك له في ربوبيته، فإن أشركنا بهذا الحق أحدًا غيره فستبقى هذه العبادة باطلة.

والحق الذي هو أكبر من كلّ الحقوق بعد حقّ الله هو حقّ الوالدين لأنّ الله يجعلهما وسيلة لإبراز الإنسان إلى الوجود وثم تربيته ولكنّ حقّهما ليس العبادة بل البرّ والإحسان، ويليه حقوق الأقرباء التي يلدها هذا الحقّ ويأتي بعدها حقوق اليتامى والمساكين والجيران، وللجيران ثلاثة أنواع أوّلهم مَنْ هو جار وقريب معًا، وثانيهم جار

غير قريب وأما الثالث فمن أصبح جارك لوقت محدّد إما في السفر أو غيره فأمر بالإحسان إلى كلّ هؤلاء، وبعدهم جاء ذكر أبناء السبيل والعبيد الذكور والإناث.

وقد سبق أنْ ذكرنا عن الإماء والعبيد أنّ الرق ليس جزءا من النظام الإسلامي فقد قرّره الإسلام نظراً للأوضاع الراهنة العالمية ثم قرّر في نظامه أنواعًا لتطوير ورفاهية العبيد تجعلهم تدريجيًا يمتّعون بالحقوق المتساوية في المجتمع الإسلامي. فجعلهم من بين مَنْ يستحقّ الإحسان. والهدف من هذا تبديل نظرية الناس عنهم وأن يجعلوا إصلاحهم ورقيّهم كقضية مستقلّة حين فرض الإحسان والبرّ.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا: هذا بيان مَنْ لا يكرّم أداء الحقوق والإحسان إلى الناس. والمعنى أنّ مَنْ يعتبر وفرة الأسباب والوسائل نعمة من الله عليهم تثور فيهم عاطفة الشكر والتواضع وهي تحثّهم على الإحسان إلى غيرهم كما أحسن الله إليهم ولذا هم يحسنون إلى الناس ويستحقّون حبّه لهم. وبالعكس من ذلك أنّ مَن يعتبر نعم الله عليهم مما كسبت لهم قوتهم وموهبتهم وحكمتهم لا تثور فيهم عاطفة الشكر والتواضع بل يولد فيهم الفخرُ والتكبّر فلا يحسنون إلى الناس ويحاولون أنْ يمنّوا عليهم إحسانهم فالله لا يجعل مثل هؤلاء الكفّار وفاقدي الضمير أحبّاءه. فمعنى "لَا يُحِبُّ": يبغضهم.

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ... بيان المزيد من خصائص المتكبّرين والمفتخرين، سنفصّلها فيما يلي:

أولاها: أنّهم بخلاء بأنفسهم كما أنهم يأمرون غيرهم بالبخل. والبخيل هو الشخص الذي يضيق صدره عن أداء حقوق الآخرين فمن يؤدّي حقوق غيره بسماحة ووفرة ولا ينفق على نفسه إلا بحذر ليس ببخيل فالبخل سببه ألّا يعتبر المرء ماله مما وهبه الله بل يعتبره مما كسبت يداه فتموت فيه عاطفة الشكر والتواضع التي هي الحافز على الجود والسخاء.

والبخيل كذلك يأمر غيره بالبخل وذلك لأنّ جود الآخرين غيره يكشف عن بخله فإخفاء عيبه هذا يحاول أن لا يؤدي الآخرون حقوق الناس كما هو بنفسه لا يؤديها كيلا يبقى مَنْ ينفق فيعيب عليه. وهذا من المطّرد أنّ من يكون جبانًا لا يعلّم غيره

إلا الجبن لكيلا ينكشف جبنه هو.

وثانيتها: أنهم يخفون فضل الله الذي أعطاه إيّاهم. هذه إشارة إلى أخفى جانب نفسي للأغنياء البخلاء فإنّ الأغنياء البخلاء يحبّون في جانب أن يخضع لحكمهم كل الناس وفي جانب آخر ألّا يلوموهم في أمر أداء الحقوق لذا يكّررون لكل غاد ورائح ولكلّ طالبِ وسائلٍ ما يزعجهم من نفقاتهم الكثيرة وخسائرهم التجارية وواجباتهم الموسّعة وكثرة السائلين لكي يفهم الناس أنه غنيّ وسخيّ حقًّا ولكنه مثقّل عليه بالمسؤوليات فلا يتبقى لديه شيء ولو أنه يكسب أموالًا طائلة.

وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا: قال هذا لكفّار النعم بأنه أعدّ لهم عذابًا لا يكرّمهم بل يذلّهم فالعذاب المهين ليس إلّا أنهم لم يؤدّوا شكره تعالى بعدما أنعم عليهم ولا أدّوا ما يجب عليهم بل العكس من ذلك أنهم تكبّروا وتجتروا وأخفوا أفضاله تعالى.

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ الآية: هذه الآية أيضًا بيان من سلسلة الحديث الذي سبق آنفًا أي ولو أنهم ينفقون شيئًا لا يفعلون إلا رئاءً فالإنفاق الذي يتبعه الرياء ليس إلّا إنفاق تجاريّ فأوّلًا لا تصل فائدته إلّا قليلًا إلى من يستحقّه فإنهم لا يجدون فرصة الرياء بالنسبة لمن يستحقّ ذلك الإنفاق وثم أنّ إنفاق الرياء لا يمتّ إلى الله بصلة كما أنّ صلاة المنافق لا تصل إليه، ولو أنّ مثل هؤلاء الناس يدّعون الإيمان بالله والآخرة ولكنهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة، ولا يقبل الإنفاق عند الله إلا ما يتبعه الإيمان بالله والآخرة لأنّ هذا الإنفاق يتسبّب الخير والبركة في الدنيا كما أنه يتسبّب الخير والبركة في الآخرة. فمن يكون عاريًا عن الإيمان بالله والآخرة لا يكون وليّه إلا الشيطان فمن أصبح له الشيطان قرينًا لا يوفّق لفعل الخير والبركة شيئًا. إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ (الإسراء)

وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

هذا بيان للأسف على سوء حظّ البخلاء بأنّهم يرون خسارة كبرى في الإيمان بالله والآخرة والإنفاق في سبيل الله مما وهبهم من الأموال، والحال أنّ هذه ليست تجارة تعقب خسرانًا بل هي تجارة يحشوها منافع أصلًا فإنّ الله ليس بغافل عن عمل أحد ولا يظلمه فتيلًا بل يجزي حسنته جزاء مضاعفًا كما يزيد فيها من عنده.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

أمّا فيما يتعلق بإتمام الحجة فقد أعلمهم الله بدينه بواسطة رسوله وهكذا أتمّ حجته عليهم فلم يبق شيء من الواجب بالنسبة لتبليغ الدين وبيان الشريعة فإن يعرضوا بعد ذلك عن الله ورسوله فلو أنهم يخفون كفرهم ونفاقهم اليوم ولكن ماذا يفعلون يوم الحشر حينما يجمع الله رسله وأممهم ثم يجعلهم شهداء عليهم فيشهدون أنهم قد بلّغوا إليهم الدين كما ستحضر (يخاطب رسول الله العربي) لمثل هذه الشهادة فيودّ كلّ من كفروا وأنكروا بالرسول أن تخسف بهم الأرض فتسوّى عليهم ولا يكاد أحد يخفي أمرًا على الله.

والنفي في "لَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا" يدلّ على عدم استطاعة الفعل فالسبب في عدم إخفاء أمر هو أنّ أيدي المجرمين وأرجلهم وكافة أعضائهم ستشهد عليهم يوم القيامة. ولقد أوضح القرآن هذا الواقع في مكان آخر فقال تعالى:

"حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾" (سورة فصّلت)

وهذا اللفظ يحتوي هنا على تعريض لطيف بأنّهم يخفون فضل الله الذي أعطاه إيّاهم "وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ" الآية: 37 وقال هنا إنّهم لن يخفوا شيئًا عن الله في ذلك اليوم فسينكشف كلّ شيء ويشهد عليهم.

وأمّا القول بأنّ الأنبياء سيقومون للشهادة على أممهم يوم القيامة يثبت من الأماكن

الأخرى للقرآن الكريم فجاء في سورة المائدة:

"يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾".

أي يسأل الله تعالى يوم القيامة رسله: لمّا بلّغتم دين الله إلى أممكم فماذا فعلوا بدين الله؟ فيردّ عليهم الرسل أنّا بلّغنا دينك حقّ تبليغه ثم ماذا فعلوا بدينك تعلمه أنت جيدًا لأنّك علّام الغيوب.

تتضح حقيقة هذه الشهادة من شهادة سيّدنا المسيح عليه السلام التي ذكرت في سورة المائدة كما يلي:

"وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾".

فيروى عن هذه الآية للنساء أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لابن مسعود: اقرأ عليّ. قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري فقرأ ابن مسعود النساءَ حتى بلغ "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا" قال: قال: استعبر النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكفّ ابن مسعود".[1]

فيبدو من هذه الرواية أنّ هذه الآية كانت مسؤولية كبرى للنبي كما كانت شرفًا كبيرًا له.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ

[1] تفسير الطبري، 40/7

ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

الصلاة كلمة معروفة ولكن كما نورد الظرف ويضمنه المظروف، فكذلك نأتي بالمظروف فيضمنه الظرف أيضًا إذا دلّت عليه القرائن. هنا قرينتان تدلّان على أنّ لفظ الصلاة هنا يضمن موضع الصلاة (المسجد). أولاهما ألّا تقربوا الصلاة وأنتم جنب أو سكارى فالبديهي أنه إذا كان المراد من الصلاة مجرد الصلاة لكفاه القول "لا تصلّوا" فلا يفيد أداء هذا المعنى لفظ "لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ" والأخرى أنه يتبعه استثناء "إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ" أي إذا أريد به المرور بمكان الصلاة فلا حرج فإنّ هذا المرور لا يلائم الصلاة بل إذا كان ملائمًا إيّاه تمامًا لكان موضع الصلاة (المسجد) فقد أراد بـ"عَابِرِى سَبِيلٍ" بعض المفسّرين حالةَ سفره ولكن هذا تكلّف محض. فأوّلًا هذا التعبير للسفر لا يعرف وأما ثانيًا فالرخصة لحالة السفر مذكورة في هذه الآية "عَلَىٰ سَفَرٍ" فلا حاجة لذكره منفصلًا.

السكارى جمعُ السكران وهو مَنْ غلبه السكر من أجل الخمر فالمنع عن الصلاة وموضعها هنا خطوة أولى لتحريم الخمر، وأمّا اليهود فلم يمنع عن الخمر عندهم إلا الأئمة وذلك حين وقت الصلاة فظهر من هذا أنّ أوّل خطوة الإسلام في هذا الشأن أسبق من آخر خطوة لليهود.

وقد أرشد القرآن بذكر الخمر والجنابة معًا واعتبارهما معًا مفسدتين للصلاة إلى أنّ كلتا الحالتين نجس ولا فرق بينهما سوى أنّ السكر نجاسة العقل بينما الجنابة نجاسة الجسد. فكلمة "الرجس" التي أوردها القرآن للخمر هذا توضيح لها.

لفظ "الجنب" يأتي للجنبي كما يأتي للأجنبي وهو عامّ للمفرد والجمع والمذكّر والمؤنث.

والتيمّم يعني القصد والأرادة، والصعيد هو سطح الأرض، ففقدان الماء حين

المرض والسفر أرشد للطهارة أن يقصد أرضًا طيّبة فيمسح بها الوجه والأيدي فلو أنّ هذا المسح لا يعبأ به نظرًا لنيل الطهارة ولكنه مهمّ جدًا نظرًا لتذكير طريقة الطهارة الأصلية في الذهن فقد لوحظ في معظم عبادات الشريعة أنه إذا أشكل أو عدم العمل عليها في شكلها الرئيس فليبق شكلها الذي يشبهها لكي تطيب بها النفس في الرجوع إليها إذا عادت الأوضاع إلى نصابها.

ذكر هنا ثلاث مناسبات للتيمم وهي المرض والسفر وعدم توفر الماء فيظهر بديهيًا أنّ المرء يجوز له التيمّم إذا كان الماء متوفّرًا وهو في حالة السفر أو المرض فيخاف إذا كان المرء مريضًا أن يشتدّ مرضه بالوضوء أو الغسل فلذا روعي هذا الأمر. وكذا يمكن أن يمرّ المسافر بحالات يقنع فيها المرء بالتيمّم فمثلًا أن يوفّر الماء ولكن يكون قليلًا فيخاف صرفه إذا أهريق على الغسل أو يخاف تخلّف المرء عن القافلة إذا اهتمّ بالغسل أو أن يسافر بالقطار أو الطائرة حيث يقع المرء في مشكلة إذا يغتسل.

ذكرت هنا حالتان للنجاسة أولاهما "جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ" فالغائط هو المنخفض من الأرض، وهذه كناية عن قضاء الحاجة لأنّ أهالي الأرياف كانوا يقصدون المنخفض من الأرض أو الغابة وأخراهما: "لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ" فالملامسة تعني المسّ أو مسّ الأيدي ولكنها هنا كناية عن الجماع، فالهدف من ذكر هاتين الحالتين بالنجاسة أنّ التيمّم يكفي كلتا الحالتين من النجاسة فإن لم يكن هذا التوضيح لاشتبه أنّ التيمّم جائز في الحدث الأصغر ولكنها لا تكفي الحدث الأكبر (الجماع).

وبعد توضيح الأجزاء لنفهم محلّ الآية وارتباط بعضها بالبعض مرة أخرى ففي الآية (26) أمر بعبادة الله والإحسان بالوالدين والأقرباء وغيرهم والإنفاق عليهم كما ذكر معها ما يبطلها من الشرك والرياء وغيرهما ثم ذكر ما يفسد أبرز مظاهر عبادة الله (الصلاة) ويبطلها. ذكر آنفًا الشرك الذي هو نجاسة عقائدية وفي هذه الآية أشير إلى النجاسات الظاهرة والطرق التي تزيلها فقال: لا تقربوا الصلاة وموضعها إذا كنتم

سكارى أو جنباً وفي حالة السكر لا يعرف المرء الكلمات التي يلفظها والأعمال التي يعدها لله بفعلها أو تركها ففي هذه الحال أداء الصلاة عمل لا يعود بفائدة. وسبق أن قلنا إنّ هذه الآية نزلت حينما لم تحرّم الخمر نهائيًا فهذا الأمر نبّه الناس على أن يربّي الناس أنفسهم لقبول حرمة الخمر النهائية. وكذا منع عن قرب الصلاة وموقعها في حالة الجنابة. هذه إشارة إلى أنه كما أنّ سكر الخمر مبطل الصلاة فكذلك حالة الجنابة تنافي انشراح وحضور القلب الذي يجب للصلاة، ولكن مع هذا النهي استثنى أنه إذا مرّ أحد في هذه الحالة على موقع الصلاة فلا حرج. الغسل مزيل الجنابة ولكن إذا كان أحد مريضًا أو على سفر أو لا يجد ماءً فليقم بالتيمّم، وذكر معه قضاء الحاجة أو الجماع لكي يعرف الناس أنّ التيمم يجوز في كلّ نوع من النجاسة. وكذا ذكر طريقة التيمّم أن يقصد أرضًا طيّبة فيمسح بها وجهه ويديه. ثم قال في النهاية إنّ الله عفوّ وغفور معنى ذلك أنّ هذه الرخصة التي أعطاها الله للعباد ففعلها لأنه عفوّ وغفور.